# اليُتم اليساري في العراق!

جمال محمد تقي*

■ تحديد الموقع الفكري والسياسي والبرنامجي لاي حركة او تيار او حزب، على الخارطة الفعلية، وعلى جغرافية القوى الاجتماعية المتضادة في وحدة زمنية ما، وفي اي بلد او قارة او على صعيد العالم كله، وضمن عملية تفاعل متبادل، بين العام والخاص، والذاتي والموضوعي، وضمن معادلات احتمالية متغيرة، قد يكون فيها العامل المساعد هنا هو عامل حاسم هناك، تجد فرزا متجددا، على اساس المواقف المختلفة من قضايا، توزيع الثروة واشكال الملكية وشكل الدولة ونمط الانتاج والاستهلاك وما يتشعب عنها، او يستجد في كل الميادين التي توظف لخدمة طرفي الصراع، وكل هذا الفرز لا يعني تصنيف ادانة او اشادة مسبقة على وجهتها، فكلاهما اليمين واليسار، ينطلق من قاعدة اجتماعية، وله مبررات وجود سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.

لليسار موقع سياسي وفكري وخصائص محددة تغتني وتتجاوز في طريق نموها الطبيعي مراحل الطفولة والمراهقة والشباب والنضج والشيخوخة ثم الموت الذي يولد في رحمه شكل جديد ليسار جديد نافيا نفيه، ومثله اليمين ايضا، ومفردة اليسار عبارة عن وعاء لغوي تمييزي يحتم تداوله وجود مفردة قطب اليمين، وهي بهذا المعنى تعبير عن وجهة قياسية محددة يحكم عليها من خلال ادائها، ونقطة تطابق اهدافها، في الممارسة مع نتائج صراعها لا غير، وان افتقدت لهذا المعنى، فتبقى التسمية، مجرد اتجاه مثل بقية الاتجاهات الاربعة.

ان القطبين السالب والموجب هما حتميان لاي عملية تشغيل لتيار الطاقة، واليسار واليمين وتفاعلات صراعاتهما حتميان ايضا، لاي عملية تطور وحركة تصاعدية للمجتمعات الطبقية السائدة.

ليست مفردة اليسار حميدة بحد ذاتها، وليس الموصوف بها مشادا به بالضرورة، ولا مفردة اليمين شتيمة، وليس الموصوف بها ذميما بالضرورة، وهكذا الحال بالنسبة للوسط، ويمينه ويساره، ولا شطط في قولنا ان تصير وتبلور قطب يساري واضح بتاثيره في خطوط الطول والعرض التي تشد جغرافية المعادلة السياسية يفترض بالضرورة تصير وتبلور قطب يميني له فعل الشد نفسه لكنه يعاكسه الاتجاه، وكلما كان الطرفان حريصين على الشد المتوازن الذي لا يخل بآليات الصراع، لكي لا يؤدي الى خسارة القطبين معا، فانهما بذلك يمارسان نضجا عميقا في ادراك المسؤولية الكلية المترتبة على ممارساتهما معا، مما يزيد من احتماليات تجدد عمريهما الافتراضي بتواصل راق، وقد يفتح ذلك الباب واسعا امام توازن، يعززه تجذر معرفي في تجاوز فكرة الهيمنة نحو فكرة المشاركة.

كفتا لوح قطباه يمين ويسار، وما بينهما يبتعد ويقترب من احدهما كلما زاد وزنه، فاذا مال اللوح باتجاه الاثقل وركز طرفه، فمعنى هذا انه قد كسب حركة هذا اللوح خلال هذه الجولة من التارجح وسيكون مصير اقصى الجبهة المقابلة معلقا بشدة وقع الركزة تلك.

هذا التوصيف يذبل ويتلكا ويتكسح امام حالات التخشب الطبقي والتشوه والاضطراب المجتمعي ويسيح تاركا الباب مفتوحا الى توصيفات تسبق حالات التبلور والاصطفاف السوي بين يسار ويمين، بين محافظين ومطالبين بالتغيير، بين مالكين وماجورين، اي بين طبقات اجتماعية، وليست اطباق اجتماعية، بمعنى العينات الاجتماعية المتوفرة، والتي لا تشكل نمطا اجتماعيا، لانها عينات غير سائدة ولم تاخذ مداها الضروري، مهما حملناها، ما لا تحتمل، من لبوس مستعارة، ووصفناها بما ليس فيها من باب الهروب للامام، وهذه الحالة هي نتيجة لاحد الاحتمالين التاليين، اما ان المجتمع المعني ما زال متخلفا ومعزولا، او انه مجتمع نام وفيه كل مستويات الاصطفاف والفرز لكنه فجر من داخله تفجيرا هائلا ادى الى تشظي نموه الطبيعي وانهيار منظومة دولته بالاحتلال الاجنبي المباشر، او بالاحتلال غير المباشر بواسطة التسيير المبرمج عن بعد ضمن مناطق النفوذ التابعة والمهيمن عليها سياسيا واقتصاديا وثقافيا، والحالة الثانية تنطبق على العراق، اي انه مجتمع نام فجر من داخله، والحقيقة ان السعي الحثيث لقطع عملية نموه واعاقتها وحرمانها من امكانيات الاستئناف ابتدات فعليا منذ بداية عقد التسعينات، اي بفرض الحصار الشامل والمدمر الذي استمر زهاء 13 عاما، ثم توج بالاحتلال المباشر في 2003/4/9، بمعنى ان فترة الحصار هي الفترة المدى الواقعي للهدم المنظم، وما حدث بعد عام 2003 هو تسوية الارض لاقامة مجتمع الفوضى الخلاقة كما يحلو للبعض تسميتها، فهي عملية اتلاف وبتر وتحطيم لكل طلل تبقى بعد الحصار كي لا يكون شاهدا على نمو كان ولا يكون محفزا لاي نوع من لاستدعاء والاستئناف، انها عودة الى الوراء بكل المقاييس، وما يهمنا هنا حالة الطبقات الاجتماعية، التي يفترض ان يكون اليسار واليمين التعبير السياسي لافرازات استقطاباتها وتركزها وتمركزها.

### الطبقات في العراق اطباق طائرة

اكثر من 70 % من الايدي العاملة عاطلة عن العمل، بدون اي تامينات اجتماعية او صحية، اغلب معامل ومصانع القطاع العام والخاص اما دمرت او بيعت كخردة او فككت لتباع في دول الجوار، وحتى المجال النفطي فقد شمله قانون الاجتثاث والتصفية، فقد تسربت خيرة الخبرات الفنية العراقية للعمل في الخارج، ويتم الاستعاضة عن الايدي العاملة العراقية رويدا رويدا لتحل محلها شركات اجنبية بطواقم مستوردة، فقط اعمال الخدمة والضيافة تترك للعراقيين. اما العمل في المجال الزراعي والحيواني فقد انهار وما بقي فيه من رمق فهو صراع من اجل البقاء لا غير، ارض تزداد ملوحة، تعطل في كل مشاريع البزل، انهيار نظام حصص الاسمدة والمبيدات، هجرة مخيفة داخليا وخارجيا، انهيار نظام الخدمة البيطرية، تلوث اشعاعي وبيئي خطير، استخدام سياسة الباب المفتوح امام كل انواع البضائع، تدهور مكانة المنتوج المحلي العراقي وجعله في خبر كان، والمقصود بالمنتوج المحلي، الصناعات اليدوية والاعمال الحرفية، والمنتجات المنزلية، نزوع واضح نحو الاعمال الطفيلية وغير المنتجة «السمسرة، الدلالة، الارتزاق، ومهنة جديدة هي شركات الامن الخاص ـ الحماية ـ».

ازدهار قيم الشعوذة والنصب والتحايل والفساد الاخلاقي مع ظاهرة طافحة جديدة هي تعاطي المخدرات وعلى نطاق واسع.

انهيار شامل وكامل للطبقة الوسطى (الموظفون من ذوي الكفاءات، تجار الجملة التقليديون، الصناعيون، المالكون المتوسطون في الريف والمدينة).

سيادة طبقة طفيلية طارئة بشرائح متعددة ومنوعة على اغلب مجالات الحياة العراقية (السياسية والاقتصادية والثقافية والخدمية).

تزايد هائل في كم وكيف الطبقة المعدمة، او المسحوقة او الكادحة سمها ما شئت، وهناك شرائح وفئات اجتماعية قليلة نسبيا تقع بينها البين، اي بين الطبقة الكادحة والطبقة الميسر حالها او الميسورة.

### اين اليسار من كل هذا؟

مثلما ليس هناك يمين واضح فليس هناك يسار واضح، لاننا نتكلم عن حطام وبقايا، وما انفك غربال الفرز يعمل بعد، ولان هناك تفجيرا اجتماعيا سلبيا وارتداديا هائلا، فان الاصطفاف الاساسي ستكون علته في الموقف من عوامل التفجير، وكيفية مجابهتها، لاستئناف عملية النمو الطبيعي والفرز الطبيعي لقوى مستقطبة موضوعيا في صراع طبقي وسياسي بعيدا عن الارادوية، وقد بدات ارهاصات هذا الفرز فعلا، بين فئة سياسية تماهت مع فعل التفجير وفاعليه وانخرطت لترتيب حالها على اساس تداعياته المشروطة بشروط فاعله، وبين فئات صامتة، واخرى مندهشة، واخرى مقاومة، واخرى منتهزة، لكن الفئات المقاومة بمعناها الشامل تزداد قوة، والمقاومة هنا هي كل اشكال الرفض للمشروع الاحتلالي وشروطه التي يضعها على طفيليه من العراقيين لرسم مستقبل بلاد مسموح لها ان تبيع نفطها لزبائن معينين وبشروط معينة مقابل شراء ما يسد الرمق من غذاء ودواء ليس اكثر من ذلك!

وازدياد هذا الرفض يتاتى كلما انكشفت عورات المحتلين واتباعهم وهذا الامر حاصل وبتعاظم رغم كل اشكال التدليس والمغالطات والتجويع والاشغال والتعبئة الانعزالية الطائفية والاثنية والمناطقية التي يلف ويدور حولها المحتل واذنابه.

صحيح ان اليسار في اجزاء واسعة من العالم تلقى طعنة موجعة في انهيار الاتحاد السوفياتي وكتلته الشرقية، لكن هذه الطعنة ستكون بمثابة «الجرح الذي يجعل صاحبه اقوى» لو كانت منطلقاته في العدة والعدد هي منطلقات محلية وطنية حرة، كما هو حال يسار امريكا اللاتينية مثلا، فاليسار سيفرز معطياته عدة وعددا من هذه الاغلبية الساحقة المسحوقة، واليمين سيفرز معطياته من فئاته المتضررة حتما من الاستعمار والاستثمار الامبريالي الجديد الذي يريد جعل الاستثمار الوطني هو عبد مسير لا مخير، وعليه فاليسار واليمين موضوعيا في خندق واحد للنضال من اجل استعادة حلبة الصراع، من اجل استعادة الوطن.

«الوطنية ليست شعارات نرددها، الوطنية افعال نستنهض بها الكادحين نحو وطن حر وشعب مرفه» هذا ما قاله عاصم فليح اول قائد للحزب الشيوعي العراقي.

«كنت وطنيا قبل ان اكون شيوعيا وعندما اصبحت شيوعيا صارت وطنيتي اوثق»

يوسف سلمان يوسف ـ مؤسس الحزب الشيوعي العراقي.

«الدفاع عن الوطن ضد اي محاولة لاحتلاله او اذلال شعبه هو واجب مقدس تحقيقه يتيح للشيوعيين امكانية رحبة للانطلاق نحو اهداف الحزب ليكون في الطليعة حقا».

الراحل زكي خيري قائد شيوعي مخضرم.

هؤلاء وغيرهم الكثيرون من زعماء اليسار الاصيل الذين تخرجوا من مدرسة الوطنية الاولى الحزب الوطني وزعيمه الوطني واليساري البارز جعفر ابو التمن، وكانوا اقرانا ليساريين خلاقين من امثال كامل الجادرجي وابراهيم كبة وفؤاد الركابي وعزيز شريف ومكرم الطالباني وغيرهم من الشهود على الجذوة الوطنية الفياضة لليسار الاول.

«حزبان شيوعيان في بلد واحد احدهما يكذب»
فلاديمير لينين

اريد من القارىء ان يؤسس بنفسه على ضوء مقولة لينين اعلاه بعد ان اسرد وجها اخر للحالة الراهنة..

«الطبقة العاملة الكردية في العراق، الطبقة العاملة التركمانية في العراق، الطبقة العاملة الشيعية في العراق، الطبقة العاملة السنية في العراق، الطبقة العاملة التركمانية في كردستان العراق، الطبقة العاملة الفيلية في العراق، الطبقة العاملة المندائية في العراق، الطبقة العاملة الكلدو اشورية في العراق (اعذرونا عن نسيان اي مكون اخر من مكونات والطبقات العاملة في العراق)!.

لا نقابات حقيقية للعمال أو اتحاد حقيقي، وعلى غرار ذلك اوضاع نقابات المعلمين واتحادات الطلاب ومنظمات النساء والجمعيات المهنية كالمحامين والصحافيين، حتى اتحاد الكتاب والادباء صار في ظل العراق الجديد ادارة صورية للفدرلة البائسة.

الحزب الشيوعي الكردستاني، الحزب الشيوعي العراقي اللجنة المركزية، الحزب الشيوعي العراقي القيادة المركزية، الحزب الشيوعي العمالي العراقي، حركة اتحاد الشعب، منظمة سلام عادل، الحزب الشيوعي العراقي الكادر، منظمة اللينين الثوريين، والقائمة تطول.

اما كلهم كاذبون، او لا يطيق بعضهم بعضا، واما الاثنان معا، وبما ان العبرة في النتائج فانها ومنذ زمن قد اعلنت عن نفسها، انهم جميعا ليست لهم لا عدة العمل التي يتاهلون بها ولا العدد، وهذا اكبرهم حظا بحكم مماهاته للمشروع الاحتلالي لم يحصل الا على مقعدين في انتخابات يقول عنها ديمقراطية، كان شخص واحد مثل مشعان الجبوري قد حصل فيها على ثلاثة مقاعد!؟ وعليه فلا اليمين يمينا ولا اليسار يسارا، والمطلوب استعادة بساط الوطن الذي سحبه الاحتلال من تحت الجميع، المطلوب جبهة وطنية شاملة للتحرير ووضع البلاد على طريق التنمية الديمقراطية الحقيقية، ليلعب اليمين واليسار لعبتهما على ملعب الوطن المستعاد.

* كاتب من العراق

# عن «الإسلام التركي المعتدل»، والاتحاد الأوروبي، وفلسطين

د. أسعد عبد الرحمن*

■ كانت تركيا من أوائل الدول الإسلامية غير العربية التي استقبلت وفدا لحركة حماس بعد نجاحها في الانتخابات الفلسطينية. وقد أحدثت الزيارة في حينه توترا جديدا في العلاقات الدبلوماسية بين تركيا وإسرائيل وذلك بعد عامين على اتهام رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان لتل أبيب بانتهاج «سياسة إرهابية ضد الفلسطينيين».

وقد رفضت تركيا الانتقادات الإسرائيلية لزيارة رئيس المكتب السياسي لحماس إلى أنقرة وقالت ان مقارنة المتحدث الرسمي الإسرائيلي بين الحركة الفلسطينية والمتمردين الأكراد في تركيا «لم يكن مناسبا». وفي سياق متمم، يرى البعض أن دخول تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي ـ إذا ما تم ـ قد يكون عاملا مساعدا للقضية الفلسطينية وصوتا إضافيا يدافع عن الحقوق الفلسطينية داخل أوروبا. غير أنه لا تزال هناك عقبات تحول دون دخول تركيا للاتحاد الأوروبي لعل أهمها النفوذ المستمر والقوي للجيش في المجتمع التركي والسياسة التركية، الأمر الذي قد يعرقل في النهاية جهود الحكومة التركية ذات التوجه الإسلامي المعتدل للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وعلى عكس ما هو عليه الحال في أوروبا الغربية فإن الجيش التركي يتدخل في السياسة التركية، بل انه قام في السنوات الماضية بثلاثة انقلابات سياسية كان أهمها الحد من النفوذ الإسلامي المتنامي. ومثل هذا التطور، في المعايير الأوروبية، غير مقبول ولا يمكن التسامح معه.

ولكي تتأهل تركيا للانضمام للاتحاد الأوروبي يصر الأخير على تنظيم العلاقة بين الجيش والحكومة بشكل صارم بحيث يمنع «العسكر» من التدخل في السياسة ويتولى المدنيون الإشراف على الجيش وليس العكس. وحتى الآن، فإن «العسكر» الأتراك لا يأخذون مطالب الاتحاد الأوروبي بالجدية اللازمة. وبعد فوز الإسلام التركي المعتدل (حزب التنمية والعدالة) بزعامة أردوغان في انتخابات 2002، استطاع إحداث اختراق داخل الاتحاد الأوروبي، وبدأ التفاوض الرسمي مع أنقرة حول عضويتها بالاتحاد الأوروبي رغم استمرار المعارضة القوية لذلك.

***

من جهته، يواجه الاتحاد الأوروبي عقبتين أساسيتين: أولاهما الكلفة المالية الضخمة التي يترتب عليه دفعها للنهوض بالاقتصاد التركي ليصبح على قدم المساواة مع اقتصاد الدول الأوروبية، وثانيتهما النمو الديموغرافي. فتركيا في حال انضمامها للاتحاد ستصبح ثاني أكبر دولة بعدد السكان بعد ألمانيا وستتفوق عليها بعد سنوات قليلة بسبب نسبة الولادة المرتفعة لسكانها، الأمر الذي ينعكس على عدد الأتراك في البرلمان الأوروبي والمجالس الأخرى، فالتمثيل في هذه يتم بالتناسب مع عدد السكان. هذا بالإضافة إلى التباين الثقافي والتراثي (الإسلامي) مع الثقافة والتراث الأوروبي، خصوصا بعد إصرار الفاتيكان على كون الدين المسيحي أحد المكونات الأساسية لأوروبا. هذا علاوة على مشاكل أخرى منها، مثلا، مشكلة الأقليات، كذلك الخوف من لعب تركيا (حليف الولايات المتحدة القوي) دور «حصان طروادة» في الاتحاد الأوروبي إضافة لبريطانيا. ومع ذلك، استطاع أردوغان، بإصلاحات معينة، التقريب بين المعايير التركية والمعايير الأوروبية. فقد استطاعت حكومته، التي تضم أطياف السياسة التركية ـ عدا الشيوعيين ـ تنفيذ جزء كبير من برنامجها الإصلاحي في وقت قصير نسبيا. ومن هذه، إلغاء عقوبة الإعدام، وتغيير أنظمة السجون وإنهاء التعذيب، وتعزيز حرية التعبير والشفافية ودولة القانون، وإلغاء محاكم أمن الدولة والمحاكم الاستثنائية، والاعتراف بأولية التشريعات الدولية على حساب القوانين الوطنية في مجالات حقوق الإنسان، واعتمادها في المحاكم التركية. كما عززت حكومة أردوغان سلطة البرلمان، وقوانين المساواة، ومراقبة نفقات القوات المسلحة، حيث أنيطت بديوان المحاسبة السلطة لمراقبة جميع المصاريف العامة بما فيها العسكرية. إلى ذلك، قلصت الإصلاحات من صلاحيات مجلس الأمن القومي، وأدى تغيير سلطات الجيش إلى خفض تأثيره في إدارة العلاقات الخارجية بخاصة مع اليونان حيث تمكنت الدبلوماسية التركية من القيام بدور إيجابي في حل أزمة جزيرة قبرص ودخول الأخيرة عضوية الاتحاد الأوروبي. كذلك ساعد رفع حالة الطوارئ في تمكين سكان أقاليم الجنوب الشرقي من ممارسة الحريات الأساسية علاوة على تحسين مستوى حياة الأكراد بالرغم من النكسة الأمنية الأخيرة على هذا الصعيد. وقال وزير الخارجية التركي عبد الله غول في مؤتمر صحافي: «نعتزم مواصلة عملية الإصلاح.. المهم الاتجاه الذي نسير فيه.. المزيد من الديمقراطية وحقوق الإنسان والتي ستقوي من مركزنا». كما تم مؤخرا تعيين محقق للفصل في الشكاوى التي تقدم ضد الدولة. ويقول الاتحاد الأوروبي ان هذه الخطوة من شأنها دعم الحرب على الفساد الرسمي وإحكام الرقابة على الإنفاق العسكري.

***

من ناحية أخرى، ثمة تعهد تركي بالدفع باتجاه إصدار قانون جديد لتعزيز حقوق الأقليات غير المسلمة في تركيا في تملك عقارات. ولا يزال الجدل محتدما بين الحكومة التركية والاتحاد الأوروبي حول إلغاء المادة (301) من قانون العقوبات التي تجعل من انتقاد مؤسسات الدولة جريمة يحاسب عليها القانون. ويشمل ذلك المؤسسة العسكرية والهوية التركية. وقال السيد عبد الله غول وزير الخارجية: «ليس هناك سجين في تركيا بتهمة التعبير عن الرأي.. في هذه اللحظة لا نتوقع أي تعديل لهذه المادة ولكن إذا ثبت أن هذا ضروري فإن التغيير ممكن». ومما يجدر ذكره أنه، بمقتضى هذه المادة، حوكم العديد من الكتاب والأكاديميين الأتراك، على الرغم من أن غالبية المحاكمات تنتهي بدفع غرامة أو إسقاط الاتهامات. ومع ذلك، يبقى السؤال عن مدى القرب الذي حققته هذه الإصلاحات من عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، وهو الأمر الذي لا يزال مثار جدل كبير سواء داخل الاتحاد الأوروبي أو داخل تركيا نفسها مع أن المسافة التي قطعتها الدولة التركية في مجال التشريع هي مثار إعجاب. وحقا، بات على الاتحاد الأوروبي إرسال رسالة قوية إلى تركيا بأنه جاد في قبولها في النادي الأوروبي. وعلى الاتحاد الأوروبي تقع مسؤولية تشجيع العناصر الإصلاحية والليبرالية في تركيا. وسواء قبلت تركيا كعضو كامل العضوية في الاتحاد الأوروبي أو قبلت كشريك بمزايا خاصة، فإن هذين الخيارين يشكلان قضية محل نقاش حاد بين مختلف الدول والأحزاب الأوروبية. والخلاصة، ان إحباط المسعى التركي سيصب حتما في مصلحة «التطرف الإسلامي» إذ قد تسقط عندئذ نظرية الإسلام المعتدل الذي تحاول أوساط في الغرب الرهان عليه بدءا من تركيا، مرورا بمصر والأردن، وليس انتهاء بفلسطين!.

* كاتب من فلسطين

# أهوال الربع الأول من هذا القرن!

نصر شمالي*

■ أقام الإنكليز ولاياتهم المتحدة على الأرض الأميركية باعتبارها أرض كنعان الجديدة، بعد تطهيرها من سكانها باعتبارهم كنعانيين، أي أنهم أقاموا "إسرائيل الكبرى"! وقد أعطوا أنفسهم هذا الحق بصفتهم شعب يهوه البيوريتاني المختار الذي "خرج" من إنكلترا هرباً من فرعونها البريطاني، وتاه في المحيط، قبل أن يستقر في أرض كنعان الأميركية! فهم يهود الروح الذين اعتمدهم يهوه لإقامة مملكته الموعودة التي تخلى عن إقامتها يهود الدم الذين فسدوا! وبناء على ذلك، كما يقول منير العكش في كتابه (أميركا والإبادات الجماعية) أرسى هؤلاء الإنكليز الأميركيون ثوابتهم الخمسة التي رافقت تاريخهم في كل محطاته، وهي: 1– المعنى الإسرائيلي لأميركا 2– عقيدة الاختيار الإلهي والتفوق العرقي والثقافي التي يختصون بها 3– دورهم الخلاصي العالمي 4– قدرهم في التوسع اللانهائي 5– حقهم في التضحية بالآخرين!

حتى نهاية القرن التاسع عشر حقق الإنكليز على الأرض الأميركية كلاً من الثابت الأول والثاني، في نطاق دولة لا ينص دستورها على أن لها حدوداً جغرافية، ثم انطلقوا خلف المحيطات لتحقيق الثوابت الثلاثة التالية: خلاص العالم/ عبر التوسع اللانهائي/ يساعدهم في ذلك حقّ التضحية بالآخرين الذي أعطاهم إياه العهد القديم حسب زعمهم! وبعد الحرب العالمية الثانية، منذ عهد هاري ترومان صاحب القنبلة النووية في اليابان وحتى عهد جورج بوش الذي يقود اليوم حرب تدمير العراق، حاول جميع الرؤساء الأميركيون التوسع في العالم عموماً، تارة بذريعة التصدّي للشيوعية، وأخرى بذريعة إيقاف التوسع الصيني، وثالثة بذريعة ضمان تدفق النفط الذي يمكن أن يعيق العرب "غير المتحضرين" تدفقه فيلحقون الأذى بالحضارة الراقية، الأمر الذي يستدعي السيطرة المباشرة على منابعه في البلاد العربية والإسلامية!

إن إقدام القلة من أصحاب المصالح على تحويل الأساطير إلى عقيدة شعبية يهدف إلى تحقيق التعبئة العامة لخدمتها، فهي تخاطب وتستثير أحط غرائز الدهماء بإيهامها أنها شعب الله المختار الذي يحق له التوسع من أجل بناء مملكة الله، ويحق له ضمناً إبادة الآخرين إذا ما شكلوا عائقاً يحول دون تحقيق الغاية المقدسة، وقد نجحت التعبئة الإنكليزية الصهيونية للدهماء في إبادة شعوب القارة الأميركية وفي الاستيلاء على ثرواتها، غير أن تلك الثروات تبدّدت نتيجة إسراف وحشي نهم لا يشبع، وها هم يتحولّون بكل طاقاتهم نحو ثروات القارات الأخرى ساعين إلى وضع اليد عليها بالكامل، كأنما حقولها موجودة في بلادهم، وأولها النفط باعتباره دماء وعصب الحياة المعاصرة!

غير أن الاحتياطي العالمي من النفط، الموجود بمعظمه في البلاد العربية والإسلامية، مادة غير قابلة للتجدّد ويمكن تحديد مواعيد نضوبها النهائي، وهي مواعيد لا تتجاوز القرن بأية حال إذا ما استمر الاستهلاك الفاحش على الطريقة الأميركية، ولذلك أصبحت جبهة الحرب الأولى هي جبهة النفط الذي يريدون الاستئثار به تماماً لضمان مصالحهم وسيادتهم الدولية على مدى القرن الحادي والعشرين، وليكن بعد ذلك الطوفان! وقد نهضت على هذا الأساس استراتيجية من يسمّون بالمحافظين الأميركيين الجدد، وهي الاستراتيجية التي وضعت نصب أعينها الاستيلاء المباشر على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والمحيط الأطلسي، التي يطلقون عليها اسم "الشرق الأوسط الجديد"، ولذلك فإن العالم منذ بداية الربع الأول من هذا القرن يشهد أهوالاً متصاعدة لا مثيل لها، خاصة في البلاد العربية والإسلامية التي تشكل الميدان الأول من ميادين هذه الحرب والتي سوف يتقرر فيها مصير العالم نتيجة نجاح أو إخفاق الاستراتيجية الأميركية!

يرى واضعو الاستراتيجية الأميركية، المدوّنة منذ عام 1996، أن مصالح الأمن القومي لأوروبا والولايات المتحدة على حدّ سواء تتوضع في "الشرق الأوسط الأكبر"، حيث يزداد اعتماد الدول الصناعية على اقتصاد عالمي تغذيه صادرات النفط الآتية من الشرق الأوسط، وتشير التقديرات الأميركية إلى أن الاستهلاك العالمي سيرتفع من 81,1 مليون برميل في اليوم عام 2005 إلى 89,7 مليون برميل عام 2010 إلى 98,8 مليون عام 2015 إلى 108,2 مليون عام 2020 إلى 118,8 مليون عام 2025! ويتوقع الأميركيون أن يزيد إنتاج النفط في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى 53,6 مليون برميل عام 2025، أي أن نسبته من الإنتاج العالمي سوف تكون 43 % بالمئة في نهاية الربع الأول من هذا القرن، أما في عام 2030 فسوف ترتفع نسبته من الإنتاج العالمي إلى 54,1 %! وتتوقع وزارة الطاقة الأميركية أن تصل صادرات النفط من دول الخليج وحدها إلى 35,8 مليون برميل عام 2025، أي إلى 37 % من إجمالي الصادرات العالمية، ويعتقد الخبراء أن العراق سوف ينتج لوحده ما بين 10 و 15 مليون برميل يومياً، فإذا أضفنا إلى ذلك جودة هذا النفط وسهولة استخراجه وتحويله، أي تكلفته الزهيدة جداً التي تعادل في بعض المقارنات مع غيره نسبة 1 إلى 20 دولاراً، أدركنا تماماً المحرّك الأول للحرب الهائلة التي بدأت في العراق، وأدركنا ما سوف يترتّب على مساراتها خلال العقدين القادمين من نتائج مصيرية تتعلق بأمتنا خصوصاً وبأمم العالم عموماً!

وبينما يتحدث الأميركيون بالأرقام عن وقائع الربع الأول من هذا القرن، خاصة في ميدان النفط، وهي الوقائع التي سوف تقرّر مصير مصالحهم وسيادتهم الدولية، ينشغل بعض العرب والمسلمين في ما لا طائل من وراء الانشغال به، وفي ما لا يترتب عليه سوى تسهيل عملية التدمير والإبادة والسيطرة المباشرة التي يشنها الأميركيون ضدّ بلادنا وأمتنا!

ولكن، على الرغم من ضلال بعضنا، أو تخاذله، فإن وقائع السنوات الخمس الأولى من ربع القرن الأول هذا تشير بوضوح إلى ارتباك الأميركيين وحلفائهم، وإلى تعثرهم وتخبطهم واحتمال إخفاقهم وتقهقرهم، وذلك بفضل ثبات المقاومة الفلسطينية واللبنانية والعراقية، علماً أن المقاومة تعاني في مواجهة محيطها الرسمي، وغير الرسمي إلى حد ما، أكثر مما تعاني في مواجهة جيوش الاحتلال الأجنبي! من الثابت أن الأعداء يتعاملون مع أمتنا وبلادنا بحذر شديد، باعتبارها وحدة متكاملة من الناحيتين البشرية والمادية، وهم يعولّون بالدرجة الأولى على تشتيتها خلال المواجهة، والانفراد بكل جزء منها وتصفيته على حدة، بينما بعضنا، في أعلى المستويات الاجتماعية والمواقع الرسمية، ينشغل بالعشيرة والطائفة والمدينة والدويلة، بالضبط كما يريد الأعداء الذين يغذّون مثل هذه التوجهات! غير أن ما يدعو إلى الثقة والأمل هو رؤية المقاومة وهي تخوض هذه الحرب بأفق قومي وإسلامي وأممي، واعية أن نتائجها سوف تقرر مصير أمتنا وبلادنا، ومصير أعدائنا، بل ومصير العالم عموماً.

* كاتب من سورية

# حماس في الاتجاه الصحيح

زهير اندراوس*

■ لا أحد يؤيد قتل المدنيين أيا كانت هويتهم، ونحن من هؤلاء، وبالتالي فإننا نعتقد أن عملية تل أبيب التي نفذتها حركة الجهاد الإسلامي، يوم الاثنين من هذا الأسبوع، مدانة لأنه ليس من شيم شعبنا الفلسطيني قتل المدنيين الأبرياء والعزل، حتى وفق التعريف الغربي الرسمي المتداول للإرهاب، والذي يقول بأنه قتل مدنيين غير مشاركين في العمليات العسكرية.

علاوة على ذلك، فان توقيت العملية من قبل مخططيها أربك الحكومة الفلسطينية بقيادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، التي تتعرض لحملة عالمية شرسة لعزلها وتأطيرها في خانة الإرهاب والإرهابيين، وبات واضحا أن المؤامرة على حماس، الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني في المناطق المحتلة، شاء من شاء وأبى من أبى، تشمل الولايات المتحدة الأمريكية وربيبتها إسرائيل ودولا غربية وبطبيعة الحال دولا عربية وجهات فلسطينية أكل الدهر عليها وشرب. فلا يعقل أن يقوم وزير الخارجية الفلسطيني الدكتور محمود الزهار، المنتخب ديمقراطيا من قبل شعبه، بزيارة إلى مصر ولا يجد أي مسؤول حكومي يستقبله أو يجتمع معه، كما أن افتعال المملكة الهاشمية أزمة مع حماس وإعلانها بأنها لا تريد استقبال الدكتور الزهار على أراضيها، تؤكد ما قلناه دائما بأن الدول العربية لا تمتلك الشجاعة لكي تغرّد خارج السرب الذي تقوده واشنطن.

ولكن على الرغم من ذلك، فإننا نرى أن حركة حماس تدير المعركة ضد الجبهة العالمية بحنكة وحكمة وذكاء، وتقوم بإزاحة الحجارة، كما يفعل لاعب الشطرنج البارع، عندما يحرك حجرا ويفكر ثلاث خطوات إلى الأمام.

لا نجزم ولا نفصل إذا قلنا بأن حماس تقود المعركة على جبهات مختلفة بهدف تصديع الجبهة العالمية: أولا، الحركة تحافظ على علاقات طيبة مع دول عربية وإسلامية، فإعلان قطر عن تبرع بمبلغ مائة مليون دولار للشعب الفلسطيني لا يدور في فراغ، كما أن العلاقة مع إيران تندرج ضمن رؤية الحركة لبعدها ولعمقها الإسلامي. ثانيا، المسار الذي تنتهجه حماس هو اختراق الحصار الأوروبي ومحاصرة الحصار، فها هي النرويج توجه دعوة رسمية لممثلين عن الحركة لزيارتها، وها هو رئيس الحكومة إسماعيل هنية يهاتف نظيره الايطالي المنتخب رومانو برودي ويقدم له التهاني بمناسبة انتصاره الكبير على رئيس الحكومة السابق الموالي لأمريكا سيلفيو برلوسكوني، ولا غضاضة بالتذكير بأن أول تصريح أطلقه برودي بعيد فوزه كان أنه سيسحب القوات الايطالية التي تشارك في احتلال العراق وانتهاك أرضه وعرضه، زد على ذلك الموقف الروسي المؤيد للحركة والإعلان الذي صدر هذا الأسبوع من موسكو عن نية الحكومة التبرع بعشرة ملايين دولار للشعب الفلسطيني. ثالثا، تعمل حماس بتأن على إقامة علاقات مع دول عدم الانحياز، فعلى سبيل الذكر لا الحصر، نورد في هذا السياق أن وفدا من الحركة سيقوم بزيارة رسمية إلى الصين في شهر أيار (مايو) القادم، وهناك أنباء شبه مؤكدة عن اتصالات رفيعة المستوى مع الهند، التي تستورد الأسلحة المتطورة من إسرائيل وتقيم معها علاقات دبلوماسية وطيدة، ناهيك عن العلاقة المميزة لحماس مع النظام الحاكم في جنوب أفريقيا وقيام وفد يمثلها بزيارة رسمية إلى تركيا. أما عن موقف الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز، فحدث ولا حرج، فالرجل الذي يقود دول أمريكا اللاتينية إلى تبني سياسة معادية لواشنطن العدوانية، كان أول من وجه دعوة إلى قيادة حماس لزيارة كاراكاس وأعلن عن دعمه الكامل وغير المنقوص للاختيار الديمقراطي للشعب الفلسطيني، فكان الرد الإسرائيلي على ذلك بأن شافيز هو لاسامي، لأنه صرح في مقابلة متلفزة بأنه من غير المعقول أن يتحكم أحفاد أولئك الذين قتلوا السيد المسيح عليه السلام بالاقتصاد العالمي.

والشيء بالشيء يذكر: عندما قام مجرما الحرب جورج بوش وتوني بلير بالعدوان الامبريالي على العراق قبل ثلاثة أعوام، وقفت أغلبية دول العالم إلى جانبهما، لكن مع مرور الأيام وانقشاع الغيوم وظهور الصورة الواضحة وانكشاف الأكاذيب التي سوقت للعالم لتبرير العدوان، بدأت هذه الجبهة بالتصدع، وكانت استبانيا لمن خانته ذاكرته أول دولة تسحب قواتها من العراق وتعلن على الملأ تحديها للإدارة الأمريكية، وبدأت المسبحة تفرط، لأن ما قام على باطل هو باطل، ودول العالم وشعوبها ليسوا رهائن لدى الأرعن بوش ووزير حربه دونالد رامسفيلد ونائبه ديك تشيني.

وعود على بدء: الحصار المفروض على الشعب الفلسطيني لتصديقه الرواية الأمريكية الكاذبة عن الديمقراطية وانتخابه حماس، ومحاولة تركيعه عن طريق تجويعه، سيجد طريقه عاجلا أم أجلا إلى الزوال، فالشعب الفلسطيني لم يكن يعيش في رفاهية ورخاء قبل وصول حماس إلى السلطة، والجرائم التي يقترفها الاحتلال الإسرائيلي ليست وليدة اليوم ولا البارحة، بل إنها مستمرة منذ نحو ستين عاما. أي أن هذا الشعب أثبت للعالم أنه من أجل تحقيق أحلامه وآماله على استعداد للتضحية، حتى لو اضطر، كما قال رئيس الحكومة هنية بأن يأكل الزيت والزعتر.

حماس تدير معركة غير متكافئة بالمرة مع إسرائيل وحلفائها، ومع ذلك فإنها تمكنت حتى الآن من تسجيل العديد من النقاط لصالحها، هذه النقاط، التي تصب في الصالح الفلسطيني العام. بالإضافة إلى ذلك، فلا نعتقد بأن حركة فتح المحطمة والمتشرذمة ستعود إلى سدة الحكم في القريب، ومن